قد يأخذ علي البعض التشاؤم فى روايتى هذه ولكن أنادى هنا بأعلى صوتى ..

حرس سلاااح

فإن الأمل فى من شرب مياه النيل .. دون تلوث وفى من استنشق هواء المحروسة .. دون السحابة السوداء.

إهداء

إلـى جيـل وقـف محـاولا وجاهدا فـى مواجهـة الأخطـار التـى هبت على أوطاننا.

إليـه .. بإيجابياتـه وسـلبياته فـى جهـاده قبـل أن يُسـتنحر أو يموت .. رغم أنه مازال يتنفس.

أهدى هذه الحدوتة .. أو هذه السيرة العرباوية .. مثلها مثل السـيرة الهلاليـة .. أو أدهـم الشـرقاوى .. ولكـن الفـارق مـع التشبيه.

أحمد رجائى عطية

مقدمة

فى أى سُكنة أو موقع عسكرى.

وفى ظلام الليل والكل فى راحته .. أو نيام إلا أن هناك من يقف حارسًا على الموقع.

وإذا شعر الحارس بأى خطر .. أو أن هناك من تسلل فى الظلام قادمًا من الخارج ليجوس فى المعسكر تدميرًا وفساد.

فإن الحرس يقاوم هذا الخطر ليدرأه .. وتحسبا لأن يكون هذا الخطر مقدمة لما هو أكثر من ذلك.

فإن الأوامر والتعليمات بأن ينادى بأعلى صوته حرس .. سلاااح .. حتى يهب باقى أفراد المعسكر أو الموقع العسكرى استعدادا لمواجهة هذا الخطر.

ولكن الطامة الكبرى .. أن يكون بالمعسكر طابور خامس فإن أفواه الحرس تتكمم قبل أن تنبه الباقى وتنطق بكلمة حرس .. سلاااح.

حكمة

تذكر دائما أن ضعفك ..

هو سر قوة عدوك.

عربرب

بعد حوالى نصف قرن قضاها د. (كنعان) عالم الفيزياء الشهير فى بلاد الشمال حيث النور وكرات الثلج والعلم .. والصياح كما تشاء لكن بشرط ألا يسمعك جارك أو تقلقه .. فبرغم أن بلاد الشمال التى يسكنها ويقيم فيها لا يفصلها عن بلاده فى الجنوب غير البحر الأبيض المتوسط إلا أنه كان يتذكر أنه كان يستمع وهو فى منزله إلى الخالة الست أم سعدية وهى تردح لزوجها أبو شنبات .. أو إلى عم صالح وهو يؤدب أولاده وهو يجرى خلفهم والعيال تصيح .. لقد وحشته بلاده خاصة عندما تلفح الشمس قفاه فيضع منديلاً تحت الطاقية أو طرحة تحت العقال .. حسب الحاجة.

قرر د. (كنعان) العودة إلى بلاده وموطنه بعد أن أمضى نصف قرن دون أن يتصل أو يزور أهله ولو مرة واحدة بعد فترة من الاتصال دامت بضع سنوات عن طريق الخطابات حتى انقطعت عنه أخبارهم .. وقد انشغل فى أبحاثه والتى توصل فيها إلى تكملة رسالة زميل سابق له ومن موطنه .. فقد سبقه زميله فى إيجاد (الفمتو ثانية) إلا أنه توصل إلى (السمتو فيتو ثانية) .. والذى مكنه من اختراق الماضى

عن طريق آلة الزمن التى تعود بالإنسان إلى أزمنة سابقة لكنها كانت فى مرحلة التجربة .. حيث إنهم فقدوا بعض الرجال الذين اخترقوا الماضى ولكن صعب عليهم استحضارهم مرة أخرى .. حقيقة أنه فى بداية حياته كان يسمع أخبار بلاده من خلال الجرائد فى بلاد الشمال إلا أن هذه الأخبار بدأت تتضاءل حتى اختفت تقريبا .. ومع طول المدة وانشغاله فى أبحاثه وعمله الذى يشيد به أقرانه من حوله .. نسى تماما أنه خرج من بلاد ما حتى كاد أن ينسى اسمها. إن زوجته الخواجاية من أهل الشمال .. أنسته ناسه وأهله .. حتى ابنه والذى أسماه (يوسف) .. صار اسمه بين أهل الشمال (جوزيف) وابنته التى أسماها (مريم) صار اسمها (مارى) حتى العباية والتلفيحة – اللتان ورثهما أبوه عن جده أعطاهما لـ(كنعان) حتى يتدفأ بهما من برد الشمال .. فقد استخدمتهما زوجته الخواجاية فى عمل ديكور بهما للمنزل بأن وضعت العباية على عصاية تشكل حرف (T) ووضعت التلفيحة فى شكل هندسى على الأرض .. وكأنهما خيال مآتة داخل منزل .. وكان هذا المنظر يخيف الأولاد فى أول الأمر .. ولكنهم بعد ذلك صاروا يلعبون بهذه المآتة وصار أصحابهم يحبون أن يأخذوا

الصور بجانب الخيال كصور تذكارية .. وقد آلم ذلك د. (كنعان) فى أول الأمر لكنه اعتاد على ذلك .. حتى صار يلاعب أولاده وأصحابهم حول هذه المآتة.

جلس فى المطار وهو فى انتظار الطائرة التى ستقله إلى الوطن وقد ظل يلوم نفسه كثيرًا .. كيف أنه نسى أهله وناسه كل هذه المدة وبدأ يتذكر ما تبقى فى ذاكرته من أشخاص .. لكنه ابتسم عندما تذكر عندما كان قادمًا إلى بلاد الشمال فى أول مرة .. وتذكر عندما أعدت له والدته شنطة سفره الكبيرة .. والكبيرة جدًا .. حيث إنها كانت أول شنطة وآخر شنطة يراها بهذا الحجم .. وكانت الشنطة خالية تقريبا من أى ملابس .. فهو لم يكن يملك ملابس أصلا .. وقد تبرع والده بالعباية الصوف التى يمتلكها إرثاً عن جده .. حتى يستعين بها على برد بلاد الشمال .. أما باقى الشنطة فكانت مملوءة بالذوادة التى أعدتها أمه بالعيش البتاو .. وصفيحة مملوءة بالجبنة القديمة (المش) وصفيحة أخرى مملوءة بالعسل الأسود اللتين لحمهما بإحكام عم (عبده) الذى يُصلح بوابير الجاز وقد لحمهما بالقصدير .. حتى لا تخر داخل الشنطة .. وزاد من ابتسامته أنه تذكر عندما وصل إلى

بلاد الشمال .. ووقف فى انتظار الشنطة على السير .. ولكنه فوجئ برجال الشرطة يقبضون عليه بعد أن تعرفوا عليه من خلال الرقم الموجود على الشنطة والتى وضعتها شركة الطيران .. واقتيد إلى غرفة منعزلة .. ليجد فى هذه الغرفة الخالية تماما من أى شىء إلا شنطته وبعض الأفراد ومعهم معدات غريبة عليه يقومون بتمريرها حول الشنطة وقد ارتدوا كمامات ضد الغاز .. وما أن فتحوا الشنطة .. فإذا بالصفائح قد تفتحت بعد أن انفجر اللحام نتيجة الضغط الجوى بالطائرة .. وقد اختلطت مكونات المش .. بالعسل الأسود لتنبعث رائحة غريبة ونفّاذة .. مع أجسام تتحرك داخل هذا الخليط .. يعرفها د. (كنعان) جيدًا .. إنها ديدان المش المتمكنة وقد كانت تعليقات الحاضرين من أهل الشمال أن هذا يورانيوم مخصب .. وآخر يقول عندما لمع المش باختلاطه بالعسل .. لا بل هذا إشعاعات ذرية.

وكانت الطامة الكبرى .. عندما بدأ تفتيشه ذاتيا .. وعندما خلع الحذاء وانبعث رائحة لا قبل لأحد بها .. وفوجئ بأن اندفع أحدهم ومعه جهاز يشبه جهاز الإطفاء .. ليفتحه على قدميه وحذاءه مطلقا رغاوى مضادة للجراثيم .. محذرًا زملاءه بالابتعاد .. بعد أن عطس أحدهم وتلاه آخر.

ولم تنفع توسلات د. (كنعان) بإنقاذ العباية والتلفيحة من هذا الخليط .. إنهما يمثلان له تراث. وقد أوصاه والده بهما خيرًا لأنهما من رائحة جده .. فى الوقت الذى تعبأت الغرفة من رائحة شرابه والذى أقسم أن خالته أم السعد غسلته فى الترعة قبل سفره.

وظل د. (كنعان) يلعن اليوم اللى الخواجة اختاره فيه علشان يتعلم عندهم فى بلاد الفرنجة ويكمل تعليمه عندهم.

ولم يفرج عن د. (كنعان) إلا بعد أن أرسل هذا الخليط إلى معامل التحاليل .. وثبت أنها مواد غير مشعة وليست جراثيم قاتلة .. حيث إن بلاد الشمال حذرة جدًا من حرب الجراثيم والتى بدأ الإرهاب الدولى يهدد بها.

وبعد أن أنقذ التلفيحة والعباية من بقع العسل الأسود والمش ..

ووضعهما فى كيس نايلون .. وجلس يحدث نفسه هو موت وخراب ديار .. ألحّق آكَل من الزوادة قبل ما تفسد، وشرع يتناول البتاو والمش والعسل والديدان وإذا برجال الشرطة يشاهدونه فيتناول أحدهم لقمة ويضعها فى المش ويأكلها ويعجب بها ولما شاهده أصدقاءه هجموا على الطعام وكأنهم وجدوا الغذاء السمين .. وعندما سأله أحدهم عن هذه الأجسام التى تتحرك فى المش فقال لهم إنه فيتامين فبدءوا يتسابقون عليه .. وهو ينظر إليهم بغيظ .. ويقول فى نفسه (حار .. ونار فى جتتكم .. ياولاد الـ ..) .. الله لا يسامحكم كلتوا الزوادة بتاعة الست أم د. (كنعان).

وكان جالسًا مع نجله (يوسف) يشربان النسكافيه فى انتظار الطائرة عندها سمع النداء فى إذاعة المطار عن رقم الطائرة المتجه إلى بلده التى أبلغه موظف شركة الطيران أن اسمها تغير إلى الاسم الجديدة .. وقد حز فى نفسه أن يسمع الاسم الجديد لبلده .. وقرر أن يفعل شيئًا عندما يصل إلى بلده، بأن يطالب برجوع اسم بلده الأصلى ولو كلفه هذا الأمر التوجه إلى مجلس الشعب أو حتى رئيس الجمهورية .. ولكنه تذكر عمه الشيخ (العجماوى) شيخ القرية فإنه سيحادثه أولا ..

فهو رجل ذو قيمة وله كلمة وأكيد أنه قد ترقى من شيخ بلد إلى سيناتور .. وأكيد أن رئيس الجمهورية سيستمع له ويحقق مطلبه .. وظن د. (كنعان) أنه قادر على إقناع عم الشيخ (عجماوى) أو سيناتور (عجماوى).

اتجه د. (كنعان) ونجله ليستقلا الطائرة – وما أن نزلا أرض المطار حتى سجد د. (كنعان) على أرض المطار شاكرًا الله .. وقد تعجب نجله من ذلك واعتقد فى أول الأمر أن شيئًا ما قد وقع منه على الأرض.

قام د. (كنعان) من سجدته ليحتضن ابنه مرددا .. حمد لله على السلامة .. وأمسك بيد ابنه فى اتجاه مبنى المطار .. ولكنه وجد عليها كتابات بلغة غريبة .. فلا هى العربية .. ولا الإنجليزية أو الفرنسية .. وسار فى طريقه إلى باب الدخول إلى المبنى .. ولكنه لم يجد الكلمة التى قرأها عندما خرج من بلده منذ نصف قرن .. ألا وهى (ادخلوها بسلام آمنين). أنهى د. (كنعان) إجراءات الدخول بسرعة .. رغم أنه تعثر فى التفاهم مع من فى المطار حيث لم يفهم لغتهم ولكن لغته الإنجليزية أسعفته فى التفاهم معهم وركب التاكسى الذى كان مصطفًا

فى طابور طويل لنقل القادمين حسب رغبتهم .. وما إن دخل التاكسى هو ونجله تحدث مع السائق.

د.كنعان: (عربرب .. لو سمحت).

السائق: عربرب؟ .. فين دى.

د.عدنان: متعرفش أشهر قرية مطلة على البحر الأبيض.

السائق: يا آه .. د أنت راجل قديم قوى .. ما هى أتغيرت دلوقت – وانتقلت كده كلها على بعضها بدل ما هى على البحر الأبيض .. بقت مطلة على المحيط الأطلنطي .. وأظن .. إنها فى أرض الصين .. بس برضه أتأكد وأسأل.

وظل د. (كنعان) يجادله وتعصب عليه لجرأة السائق وقوله مثل هذا الكلام ولكن السائق استوعب الوقت وظل يوجه د. (كنعان) للمعالم التى حوله واللغة الدارجة على المحلات ودار رأس د.(كنعان) من هول الصدمة وتعالت أنفاسه فى صدره وأصبح فى حيرة مما يشاهده.

وهنا .. مال د. (كنعان) إلى الأمام من مجلسه على المقعد الخلفى للسيارة محدثًا السائق بصوت فيه رجاء واستكانة شديدة!!

د. كنعان: ممكن أطلب منك طلبًا أخيرًا؟

السائق: تأْمر .. سيدى.

د. كنعان: تلف بينا شوية فى عربرب .. (مستدركاً) قصدى اللى كانت عربرب.

ولاحظ د. (كنعان) نظافة الشوارع .. وأن المنازل كلها متشابهة وبلون موحد وبارتفاع واحد .. ذات سقف من القرميد الأحمر .. وهنا تذكر شعر شوقى فى المقطع الذى كانت تتغنى به أم كلثوم .. ألا وهو (الإشتراكيون أنت إمامهم) حيث تشعر بذوبان الطبقات بين المجتمع الواحد .. وعندما شاهد أن الشوارع خالية إلا من العجائز .. سأل د. (كنعان) السائق:

د. كنعان: أين الناس؟

السائق: إنهم فى أعمالهم فالموظف فى مكتبه والعامل فى مصنعه والفلاح فى حقله والطالب فى مدرسته .. بس الساعة الخامسة ستجد أن الشوارع قد امتلأت بالناس وهم فى طريقهم للعودة إلى منازلهم.

وتذكر بلاده عندما تركها وقد امتلأت الشوارع بالمشاة مختلطة

بالسـيارات .. والأرصـفة مرصوصـة بالسـيارات .. والأتوبيسـات ذات الأدخنـة وكأنها أدخنـة أعظم جوزة .. والبشر محشورة بداخلـه .. حيث كـان يسـأل نفسـه .. هـى النـاس دى رايحـة فين .. واللـى جـاى.. جـاى منين.

وعندما مر بجانب النهر العظيم الخالد كان يتخيل من قبل أن هذه المياه هى عرق الكادحين على مر العصور .. ولكنه يراها الآن وكأنها دموع عيون تبكى أهلها بعد أن رحلوا .. وبمروره على أشجار الزيتون .. وجد ثمارها وقد سقطت على الأرض .. وكأنها انتحرت من على أغصانها حزناً .. أما أشجار الصنوبر بأذرعها المتجنحة فقد لفّت هذه الأذرع نفسها خلف الساق وكأنها اقتيدت إلى الأسر .. تنتظر حريتها .. وفجأة صرخ د. (كنعان) .. قف هنا .. إلا حق الله !! أين قدس الأقداس؟

وهنـا .. نظـر إليـه السـائق بـازدراء دون أن ينطـق أى كلمـة .. ولكنـه استدار بالتاكسى فى اتجاه المطار .. وقال لـه .. لقد جاء الوقت كى تغادر البلاد.

وقبل أن يصل إلى المطار .. ليغادر البلاد .. طلب من السائق أن يقف .. لينزل د. (كنعان) ليمشى بضع خطوات ويتجاوز

الرصيف ليخرج كيس نايلون من شنطة (اللاب توب) الذى يحمله .. ثم يعبئ الكيس بحفنات من الرمال .. رمال الوطن.

ومع دهشة (يوسف) مما يحدث .. لكن السائق فهم هذه المشاعر جيدًا لينزل من على عجلة القيادة .. ليفتح باب السيارة لـ .. د. (كنعان) .. احتراما وشفقة وقد ترقرقت الدموع فى عينيه .. وفى نفس الوقت كان خائفاً من أن يرى أحد هذا المنظر ويحاسبه على أن أحدًا يحاول أن يسرق حبات من الرمال .. رمال وطنهم الجديد.

وقد هز هذا المنظر (يوسف) .. لتنقلب الدهشة .. إلى ضيق فى صدره!! .. أكبر من أن يتحمله .. ثم يتأبط يد والده بمجرد أن جلس بجانبه وهو يرتعش.

ويمرق التاكسى مرة أخرى عائدا إلى المطار .. ليستقل د.(كنعان) الطائرة المتجه إلى الصين فى بلاد الجنوب.

وفى مطار شنغهاى ظل يسأل عن قرية (عربرب) .. ولكن الكل ينظر له باستغراب .. وأصر على مقابلة رئيس الشرطة والذى لم يفهم رئيس الشرطة منه شيئًا .. ولكن إصراره على السؤال أوصله إلى وزير الداخلية الصينى والذى قابله بعد يومين من المحاولات.

د. كنعان: معقول يا سيادة الوزير أن ناس ليهم تاريخ زينا .. لا أحد يعرف أين هم؟

الوزير: (بهدوء سمح) .. أبدًا ناس (عربرب) دول ناس طيبين .. بس أنت عارف أن إحنا هنا عددنا مليار ونصف المليار مواطن .. وممكن أن حوالى مليون (عربربى) يتوهوا فى وسط الناس وللعلم قد ذهب بعض منهم إلى بلاد أخرى خصوصا النابهين منهم اللى خطفهم أهل الشمال .. ما هو أنت عارف أن أهل الشمال زى مالهم سماسرة علشان يجمعوا لعيبه الكورة .. والغلابة علشان تجارة الأعضاء البشرية .. وكذلك لجذب النابهين لتأهليهم كعلماء يستفيدون منهم.

د.كنعان: المهم فين أهلى .. أهل (عربرب)؟

الوزير: من فترة طويلة لما لقينا إننا بنصدر ليهم كل حاجة .. وأن شركات الملاحة اشتكت من طول المسافة بيننا وبين (عربرب) .. خصوصا أن السلع اللى بيطلبوها غير إستراتيجية .. زى الولاعات والسبح .. وتوكة الشعر .. والترتر اللى بتحطوه على بدل الرقص ..

عرضنا عليهم أن نفسح لهم مكان هنا وبرضه خلينا المكان مطل على البحر وفردنا ليهم مساحة كبيرة بالرمال الصفراء وجهزنا البيئة بشوية جِمال وماعز حتى الذباب والناموس استوردناه ليهم .. حتى لا يشعروا بأى غربة.

لكن الحقيقة لما طلبنا منهم الشغل أمام البضائع اللى بنعطيها ليهم .. لقينا محدش مستعد يشتغل أكثر من (30) دقيقة فى اليوم .. وقالوا كده كويس قوى إحنا فى بلدنا لا نعمل أكثر من (27) دقيقة فى اليوم .. وأطلعونى على آخر إحصائية عندهم .. وعندما ضغطنا عليهم .. اشتكونا إلى لجان حقوق الإنسان.

د. كنعان: (بعد أن طأطأ رأسه إلى أسفل) المهم همه فين دلوقت (بعد أن نظر إليه ابنه يوسف وكأنه يقول أنت بتسأل على إيه)؟

الوزير: متزعلش يا د. (كنعان) من كلامى.

د. كنعان: أنت عارف أن دول أهلى وبرضه يعزوا علىَّ.

الوزير: بعد ما طلبنا منهم الرحيل .. لجأوا لبلاد جنوب أمريكا على المحيط الأطلسى هناك .. والبلاد دى معروفة أنها عطوفة على البلاد النامية وخاصة المغلوبة على أمرها.

خرج د.(كنعان) من عند وزير داخلية الصين وهو يجرجر قدميه .. وقد سنده ابنه (يوسف) فى مشيته .. وهو يناشده بأن يرجعا إلى بلادهم فى الشمال .. ولكنه يستدير ليحضن ابنه .. ويقول له .. يا بنى الأهل والوطن حاجة عزيزة على الواحد .. أنت معذور لأنك لم تعش هذا .. ولن تعيشه.

ولكن محاولات (يوسف) باءت بالفشل فى إثناء والده عن محاولاته للبحث عن أهله ووطنه.

ذهب د.(كنعان) مع ابنه إلى بلاد أمريكا الجنوبية والتى وجدها اتحدت فى دولة واحدة وأنها أصبحت من البلاد القوية والتى تعتمد على نفسها وتقف فى مصاف البلاد الكبرى .. زى الاتحاد الأوروبى .. وغيره.

وما أن وصل د. (كنعان) ونجله إلى عاصمة أمريكا

الجنوبية .. ليسأل عن بلدته (عربرب) .. ما بين الجوازات وشرطة المطار .. لكن أحدًا لم يدله .. وبعد خروجه من المطار ودخوله أحد المطاعم لتناول وجبة تسد جوعه .. وقد تناول كمية كبيرة من الخمر مما جعله يفقد صوابه ليقف فوق الكرسى ويسأل بصوت عالى (خبيتو بلدى فين يا ولاد الـ .. بلدى العظيمة ذات التاريخ والأديان السماوية راحت فين؟ ..) واستطرد فى هلوسته مما اضطر العاملين بالمطعم لتسليمه للشرطة .. التى لم يفهم رجالها شيئاً .. ولكنهم أحضروا له أحد الأطباء النفسيين ليجلس معه ويهدئ من روعه.

د. كنعان: أنا مش مجنون؟! .. هو اللى يسأل عن وطنه يبقى مجنون عندكم؟ .. أنا متأكد أنكم خبتوهم.

الدكتور: أنا سامعك كويس .. بس متتكلمش كلام مبهم ..

احكِ لى الحكاية .. وأنت عايز إيه بالضبط .. وأنا عارف أنك راجل عاقل وعالم مشهور .. اسمك معروف عندنا كويس .. مش برضه أنت اللى اخترع (السمتو فيمتو ثانية).

استراح د. (كنعان) فى مجلسه وشعر بقيمته .. وأنه يجب أن يتكلم بقدر مكانته المعروفة.

د. كنعان: الحمد لله أن فيه واحد عارفنى (ثم قص عليه القصة منذ خروجه من بلده حتى هذه اللحظة).

الدكتور: حظك كويس أنك من الناس اللى اختارهم أهل الشمال لتعليمهم والاستفادة منهم .. لأنك أفدت البشرية كلها .. كويس أن نصيبك كان كده .. غيرك خدوه وبيع أجزاء بشرية.

شوف يا سيدى!! .. أنا من ضمن المجموعات اللى شكلت لمحاولة استكشاف وعلاج أهل (عربرب) بعد ما وصلوا هنا .. لأن الحاكم هنا بيساعد الدول المغلوبة على أمرها .. بعد أن فشل فى محاولة أن يساعدهم وهم فى مكانهم على البحر

الأبـيض المتوسـط .. ولكـن بعـد مـا طـردوا (مـن المحـيط الهـادى) .. اسـتضافهم وقـال لنـا اهتمـوا بهـم وأكرمـوا عزيـز قوم ذل.

د. كنعان: وبعدين ؟ .. المهم أين هم؟

الدكتور: للأسف .. خيبوا أمل الحاكم .. فالمصنع اللى .. أعطاهم إياه لصناعة الشباشب .. قلبوه لصناعة (القبقاب) .. قالوا علشان القبقاب سُنة وأن ده أصلح حاجة علشان الوضوء .. ولما عاتبهم الحاكم قالوا عايزين بيت خبرة أجنبى يعدل الماكينات.

وقطعة الأرض اللى خدوها علشان الزراعة .. بقوا .. يستسهلوا ويروها من خط المجارى لأن المياه كانت عايزة حفر بير .. لكنهم كسلوا !! .. علاوة على الإجازات أو شوية برد كانوا يقعّدوا أولادهم من المدارس وسنة ورا الثانية أصبح أولادهم لا يتعلمون شيئاً.

لكن الحقيقة كانوا نشطاء جدا فى تشجيعهم للكورة لدرجة أنهم ألفوا لها الأناشيد الوطنية .. وأصبح هدفهم القومى .. ومع هذا كانوا لا يحققون مراكز متقدمة.

تصور أن فى الإستاد بتاعهم واللى دفعوا فيه دم قلبهم لغاية لما شيدوه .. كان بين كل ماتش والثانى بيحطوا فى وسط الملعب كشك أسود كبير وفوقه كرة قدم

كبيرة .. ويقعدوا يلفوا حوالين الكشك .. ولا أحد كان يعلم لماذا يفعلون ذلك؟ .. لكن عموما كنا بنحترم مشاعرهم وخاصة الدينية .. لكن الحاكم مقدرش يستحمل هذا .. وخشى على شعبه من هذه التصرفات – فاجتمع بنا نحن الإخصائيين النفسيين وحفاظا على تاريخكم العظيم واللى إحنا نفسنا اتعلمنا منه ومن تراثكم وكفاحكم .. قررنا أن نحفظهم من أنفسهم بأن نضعهم فى ثلاجة كبيرة .. إلى أن يفعل الله أمرا كان مفعولا .. وقال أن هذا أحسن من رميهم فى البحر.

د. كنعان: ثلاجة!!

الدكتور: أيوه .. يخرجوا برة التاريخ شوية .. أحسن ما

يخرجوا خالص من الحياة.

د. كنعان: آهو .. أنت قلت بعضمة لسانك إنكم استفدتم من تراثنا وحكمتنا.

الدكتور: فعلا .. الحاكم عمل محطة تلفزيون علشان ينشر ثقافتكم وتراثكم!!

لكن كانت المحطة شغالة فى برامج بتجيب ناس ويقسموهم فريقين .. وكل فريق يقعد يشتم الثانى ويكذبه والمذيع واقف حكم بينهم .. أو المذيع يجيب واحد ولا واحدة غلبانة علشان يشحت عليها فى البرنامج ثلاجة .. ولا تلفزيون .. وبين هذه البرامج شوية أغانى هابطة من واحد أو وحدة عمالين يتنططوا – يعنى لم نر شيئًا من اللى قرأناه عنهم فى الكتب القديمة.

د. كنعان: (بعد أن تهدلت كتفاه وطأطأ رأسه) .. طيب فين الثلاجة دى اللى لآمة هذه الملايين؟ .. نفسى أشوفهم ولو مرة.

الدكتور: (محاولاً استقطابه) بس هم دلوقت خارج التاريخ

.. الأيام والشهور والسنين بتمر .. وهم لا يسجلون شيئا!! .. حيصعبوا عليك!! .. وأنت رجل مفيد للبشرية .. ونخاف عليك أن تتضم ليهم ونخسرك .. خليك معانا وسيبك من أهل الشمال وإحنا سوف نضع لك كل الإمكانيات.

د. كنعان: معلهش .. أشوفهم ولو مرة واحدة .. مهما الواحد على وكبر .. برضه الوطن غالى.

الدكتور: عموما إحنا وضعناهم فى القطب المتجمد الشمالى .. ده المكان الوحيد اللى ممكن يسعهم – تأكد أن إحنا وضعناهم بعناية .. حتى الذئاب والدببة اللى هناك علشان إحنا مراضينهم وموصيين عليهم .. وآخذين بالهم وبيحرسوهم .. وطائر البطريق أصبح الصديق الصدوق ليهم .. لدرجة إنهم دلوقتى بيمشوا زيهم .. لا تقلق عليهم.

الثلاجة

شد د.(كنعان) الرحال ومعه نجله (يوسف) إلى القطب المتجمد الشمالى باحثا عن أهل (عربرب) والذين خرجوا خارج التاريخ .. وهو

يسأل نفسه إذا كانوا خرجوا خارج التاريخ لكن أين الوطن؟ .. أكيد معاهم .. فلا يتخيل أن هناك أناسًا دون وطن .. أو وطن دون ناسه. وقد تعاطف معه نجله (يوسف) فى مشوار البحث هذا .. ولقد شعر لأول مرة بكلمة وطن .. وتذكر أن أصدقاءه فى بلاد الشمال كثيرا ما يديرون له ظهورهم .. فإن سمرة بشرته وشعره المجعد الأسود كثيرا ما تسبب له عدم الأفضلية فيما بينهم إذا ما وضع فى أفضلية أو مقارنة .. اللهم إلا معاملة البنات له فقط .. كنوع من التغيير .. وهذا يضايقه كثيرًا .. فهو ليس نوع بقدر ما هو إنسان .. فهو يريد أن يشعر بنفسه ك .. (يوسف) .. وليس كنوع مختلف – لقد تشوق (يوسف) أن يرى أهله .. الذين تحدث عنهم والده د. (كنعان) طيلة بحثه عنهم .. وما أن وصلوا إلى القطب المتجمد حتى ارتدوا الملابس المناسبة لذلك وارتدوا

الجوانتيات الفرو .. واشتروا زلاقات لسهولة التجول بين الثلوج للبحث عن أهل (عربرب).

لقد أنهكهم البحث يومًا تلو الآخر .. وبح صوتهم من النداء على أهل (عربـرب) .. وقـد لاحظـوا أن الـذئاب والدببـة التـى كـانوا يقابلونهـا تهاجمهم ولكن لا تؤذيهم لتدفعهم وتجبرهم فى السير فى اتجاه معين تجاه الشمال أكثر .. فأكثر .. لدرجة أن (يوسف) قال لوالده أعتقد بما درسته فى الجغرافيا أننا عند نقطة تلاقى خطوط الطول للكرة الأرضية.

يوسف: أعتقد يا د. (كنعان) أننا وصلنا إلى المنتهى .. مش نرجـع أحسـن مـا نتجمـد ونخـرج خـارج الحيـاة نفسـها – إحنـا دلوقت فى نقطة تلاقى خطوط الطول للكرة الأرضية.

د. كنعان: شوف يا بنى .. إن لم نجد الأهل ونسألهم عن الوطن .. فالخروج خارج الحياة أفضل !! .. الوطن عزيز يا ولدى.

يوسف: أنا سايرتك .. لكن الروح غالية.

د. كنعان: أنا معاك يا بنى .. لكن أنا عشت زمن شفت فيه

وسمعت عن شبابنا فى الوطن كان بيدفع حياته ثمن للوطن .. وبطواعية وبرضا نفس يملؤها سعادة غريبة .. وإحنا مش أقل من الناس دى.

قد جلسا بجانب مغارة ثلجية .. ولكنهما وجدا أن هناك دفئا ينبعث من المغارة .. فأخذ د. (كنعان) ينادى بأعلى صوته يا عم (عجماوى) .. يا ست (خديجة) .. لينادى (يوسف) من بعده يا أونكل .. (أجماوى) .. يا .. آنت .. (كديجة) .. ولكن لا مجيب – ولكن د. (كنعان) تشجع ودخل أمتارًا ووصل إلى حافة المغارة لينادى مرة أخرى .. فيسمع صوتًا من الداخل .. د. (كنعان) يا بنى أنا شايفك وصوتك أعرفه حتى لو بعدت عنى ألف سنة .. ليندفع د. (كنعان) إلى الداخل .. ليجد (عجماوى) وهو يفرد يديه إليه .. ليحتضنه د. (كنعان) ويتعانقان .. ويستمرا فى بكاء بنهنهة ويرد كل منهما اسم الآخر مع بكاء حار .. إلى أن تجمع بعض البشر من الداخل وينظرون لهذا الموقف ثم يذهب كل منهما من حيث أتى – وقد جلسا على أريكة محفورة فى الثلج.

د. كنعان: (بعد أن جلس وجذب ابنه بجانبه) ده (يوسف) ابنى.

عجماوى: ما شاء الله.

د. كنعان: وعندى كمان بنت اسمها (مريم).

يوسف: قصدك (مارى) يا بابا.

د. كنعان: يا بنى حرام عليك سيبنى أتكلم بلغة وطنى .. خلينى أعيش شوية (ثم يوجه كلامه إلى عجماوى) .. أنا كنت بأنده وأنا برة المغارة .. وبصوت عالى .. ليه لم ترد علي.

عجماوى: أنت ناسى أننا فى الثلاجة .. يعنى برة الثلاجة دى ليس لنا سمع ولا صوت !! .. آهى عيشة.

د. كنعان: طيب علشان كده محدش بيخرج.

عجماوى: وإن خرج فالذئاب والدببة .. تحاصره لغاية لما يدخل المغارة تانى .. ومع أن لونهم أبيض زى الثلج .. لكن مش عارف ليه كاتبين على ظهورهم (بلاك .. ووتر) .. يعنى المياه المسودة .. ربنا يجيب ليهم مياه بيضة فى عيونهم!! .. دعوة عربرباوى ساعة صبحية!! .. إيه التخاريف دى؟ .. هو فيه ليل علشان يبقى فيه صبح.

د. كنعان: علشان كده فضلوا ورانا لغاية لما وصلنا هنا الظاهر إنهم كانوا فاكرينا .. إننا منكم .. وهربانين.

يوسف: جدو .. إية اللى حصل .. وإية اللى وصلكوا لـ .. كده.

د. كنعان: قبل أى حاجة .. فين أبويا وأمى .. أهلى وباقى الناس كلهم .. راحو فين.

عجماوى: كلهم جوه .. ما فيش حد مسموح له بالجلوس هنا غيرى.

وهنا يسمع أصواتًا عالية وشجار.

د. كنعان: إيه .. ده.

عجماوى: ما تأخدش فى بالك .. حتسمع كده خمس مرات فى اليوم .. ساعة كل صلاة .. بيتشاجروا .. يا سيدى علشان بيقول البعض أن يبدأ الوضوء بالقدم اليسرى .. والنص الآخر بيكفره وبيقول يبدأ بالرجل اليمنى.

وشوية وحتسمع جدل لا تفهم منه شيئًا بين شوية مسيحيين ومسلمين .. دول يقولوا المسيح قتل ..

والتانين بيقولوا أبدا دى شّبه لهم .. معرفش حتفرق عند ده .. ولا ده .. إية .. المهم ربنا يهدى الجميع.

يوسف : جدو .. أنا مشتاق أعرف .. فين الوطن اللى بابا بيقول عليه؟

لكن فى هذه اللحظة صمت (عجماوى) .. وهو يشمشم بأنفه الكبير ويقول فى ريحة حاجة غريبة .. لأمش غريبة .. دى حاجة أنا عارفها كويس .. ثم يعاود الشمشمة ويشاور على شنطة (اللاب توب) الذى يحملها د. (كنعان) ويقول فى إيه فى الشنطة دى .. ويفتحها ليخرج (اللاب توب) منها .. ولكن (عجماوى) يزيح يد د. (كنعان) وقد زاد من حالة الاستنشاق .. ويشاور على كيس الرمل الموجود داخل الشنطة ثم يجذبه ويفتح الكيس ويمد يده بداخله .. أنا عارف الرملة دى كويس .. ليملأ يده ويدعك بهذه الرمال وجه وصدره .. ويقول الله أكبر .. الرمال دى فيها ريحة عرق أجدادى .. ودم شهدائى .. الله أكبر .. الله أكبر .. سبحان الله.

ولـم يكـن مـن د. (كنعـان) و(يوسـف) إلا أن احتضـنا (عجمـاوى) ..
ويدفس (يوسف) وجهه فى ذقن عم (عجماوى) ذى الشعر
الأبيض الطويل وقد اختلطت فيها الرمال بدموعه المنهمرة .. ليشعر
(يوسف) بأن هذه الرمال لها رائحة مختلفة فعلا عن أى شىء آخر
وخاصـة بعـد أن اختلطـت بـدموع وعـرق (عجمـاوى) .. لقـد تـذكر
(يوسف) هذه الرائحة عندما استنشقها وهو بجوار النهر العظيم.

فى المبتدأ

عجماوى: آه يا زمن !! فين الناس .. اللى كانوا ناس؟

د. كنعان: طيب .. ما هى الناس زى ما هى عندك جوه.

عجماوى: الناس مش دم ولحم .. وطول وعرض قال تعالى:

(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً) سورة الإسراء الآية (36) .. فـ.. السمع بقى بليد .. والبصر؟؟ .. هأ .. فهم لا يبصرون .. ويبقى إزاى الفؤاد والوجدان .. يتحرك ..؟ ما دام الخلاية الحسية اللى جواهم لا تعى ما تسمع .. وتغشى ما تبصر!! على فكرة .. دى الحواس الوحيدة اللى ربنا سمى بهم نفسه .. فهو السميع .. وهو البصير.

د. كنعان: طيب!! افرض إنهم سمعوا .. وأبصروا – كنت عايزهم يسمعوا إيه ويبصروا إيه.

عجماوى: ربنا قالها فى كلمتين .. قال تعالى: (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ

يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ) سورة الأنفال (60).

شوف يا بنى أهل الشمال دول .. عارفين أن على مدى الدهر .. ودهر الدهر .. مفيش محتل يحط رجله على أرضنا إلا ونحن له بالمرصاد حتى نطهر بلادنا ومقدساتنا.

لذلك قرر أن يضع قدمه أولاً فى عقولنا .. وبطوننا!!

عقولنا علشان لا نفهم ما نسمع ولا نعى ما نبصر .. ويفرض علينا ما يحب هو أن نسمعه أو نبصره.

أما البطون .. فما أدراك ما البطون .. فهى الداء للأمراض .. أولهم الوهن وبالتالى للصحة والإرادة.

يوسف: أنا عايز أسمع الحكاية بالتفصيل يا جدو.

عجماوى: أقول إيه .. وح .. أفتكر إزاى وأنا فى السن ده.

يوسف: د. (كنعان) !!.. أنت مش نظريتك (السمتو[1] فيمتو ثانية) بترجع الشىء إلى الزمن القديم ويعيش فيه.

---

(1) السمت هو خط الزوال أى اتجاه الظل إلى الشمال .. وهذا لا يتم إلا فى منتصف النهار ولمدة لحظات – وبما أن الفرد يقف عند سمت الأرض فى القطب الشمالى .. ففى هذه الحالة تكون القيمة تساوى صفر.

عجماوى: ياريت يابنى .. ارجع للزمن الأصيل بتاعى.

د. كنعان: النظرية بتقول أن:

الشىء × السمت (الزوال) × الزمن (السرعة)

= زمن الانشطار الزمنى لجزئ الحديد^2

وهذه هى القوة التى تمكّن الشىء من الاندفاع داخل الزمن المراد الوصول إليه.

وبما أننا على قمة الكرة الأرضية فى المتجمد الشمالى فإنه سيكون هو اتجاه الشمال .. إذًا .. السمت يساوى صفر .. وهذا يجعل التحكم فى الشىء أسهل بسبب تعاظم قوة الانشطار الزمنى للجزئ فى الحديد، وأعتقد أن الأفراد التى تم دفعهم للماضى من أهل الشمال سوف نتمكن من استجلابهم مرة أخرى .. ولكن ينقصنا الآن قطعة حديد فى حجم أزرار القميص مرتين .. وهنا احضرها (يوسف) من الزلاقة الخاصة به.

قام د. (كنعان) بتركيب بعض الأسلاك الخاصة بالكمبيوتر .. كل بِلجّ فى مكانه والذى مرر أحدهم على جسم عم (عجماوى) .. ثم مررها على قطعة الحديد .. ليسجل أوزانهم ثم يقوم ببعض الحسابات على الكمبيوتر وقد شبك أحد الأسلاك والتى تنتهى بمشبك فى أذن عم (عجماوى) .. والذى اختفى عم (عجماوى) كإنسان .. وبقى كجسد محنط فى مكانه وبدأ صوته يصدر عن طريق الكمبيوتر .. إن هذا الكمبيوتر والذى صنع بمواصفات خاصة فى دولة ماليزيا الناهضة .. والذى طلبته منهم أهل الشمال .. وهم على أعتاب القرن الثانى والعشرون.

الحدوتة

بمجـرد أن أنهـى د. (كنعـان) حسـاباته علـى الكمبيـوتر .. تجمـد (عجماوى) على آخر وضع كان فيه وتحجرت عيناه .. لينتقل الكيان الروحى متمثلاً فى جسد هلامى غير مرئى ليذهب ويعبر عبر السنين إلى الماضى .. وبدأ صوت (عجماوى) يسمع من خلال (اللاب توب) مـرددًا .. الله أكبـر .. الله أكبـر .. الله .. الله .. الله .. وبـدأت الحلقات المتتابعة تظهر على الشاشة وعم (عجماوى) ينادى كمان .. كمان .. وهو يندلف داخل هذه الحلقات .. وظل يُكبر بأعلى صوته .. إلـى أن قال .. بس هنا .. لتظهر أمامه كنيسة ويقول يا الله .. هنا اتولد المسيح .. فيندفع إليها ويهبط أعلى الكنيسة ليتعلق بالجرس ويظل يدق الجرس بشكل جنونى صائحا الله أكبر .. ثم يجد فى الجانب المقابل جامعًا كبيرًا .. ليطير ويندفع لأعلى المئذنة ويقول هنا انطلق أول أذان للصلاة فى التاريخ .. ليطلق صوته مؤذناً بأعلى صوته.

لكنه لاحظ أن المصليين سواء فى الكنيسة أو الجامع لم يسمعوا أى شىء وكانوا يؤدون صلاتهم وكأنهم لم يسمعوا شىء .. فوجه كلامه

إلـى د. (كنعـان) متسـائلاً .. فقـال لـه د.(كنعـان) .. لا تـنس يـا عـم (عجماوى) أنك فى هذا اللحظة لم تولد بعد .. فكيف يكون لك فاعلية بين أجدادك فإنهم لن يسمعوك أو يشاهدوك حتى تولد .. وعليك الآن أن تتجه إلى جدك (عجماوى) الكبير لتشاهد الأحداث.

لقد ظهرت على الشاشة بوضوح قرية عربرب بملامحها وقد بدت بيوتها كمجموعات منفصلة من المنازل .. ورغم بعدها عن الأخرى إلا إنها قريبة جدًا بروحانياتها وبالود المشع الناتج عن الحب بين المجموعات.

فـإن مجموعـة بيـوت عـم (سـالم) .. لا يـذبح جـدّى أو مـاعز .. إلا ويعدها فـى أكلـة محببـة اسمها (الكبسـة) .. ويعزم عليها كل البيوتات التى حوله .. فإن دعوة سيدنا (إبراهيم) لهم بأن يرزقهم من الثمرات .. مـازال يعـيش أهلهـا علـى بركـة هـذه الـدعوة – أمـا عـم (صـالح) ذلـك التاجر الشاطر هو وأهل بيته فإنه يغطى التبولة والتى هى من صنع يديه بالمكسرات من اللوز والجوز ولا يهنأ له طعام إلا بعد أن يكفى جيرانه منها – والتفت (عجماوى) إلى مجموعة منازل أبو (القسام) ذلك الرجل الطيب الذى يرعى أشجار الزيتون فى ضيعته .. ولا يفوته أبدًا أن يرسل الموسم من صفائح زيت الزيتون والذى يحرص دائما أن يرسم

على صفائحه غصن الزيتون – وقد هلل وجه (عجماوى) عندما شاهد بيوت (عجماوى) الكبير .. ما شاء الله ما هذه البيوت الكثيرة .. وما هذا الذى يراه .. إن البيوت يشع منها الموسيقى والفنون .. ورواة الأدب والسيرة التاريخية .. وكم الأعمدة والتى بجانب كل منها شيخ يثقف ما حوله .. لقد كان (عجماوى) الكبير وأسرته منارة لمن حوله فى العلوم والفنون والرياضة واشتهر بأكلاته الحرشة من الفول والطعمية.

لقد اشتاق (عجماوى) لهذه الأكلة الحرشة فيهبط على أول طبلية .. ليأكل .. فلا ينتقص من الأكل شيء .. ويملأ بطنه ولكنه لا يشبع.

كانت قرية (عربرب) بمجموعات بيوتها الهادئة والآمنة وإن كانت مجموعات البيوت بعيدة عن بعضها .. إلا أنها قريبة بقلوبها ولغتها وتقاليدها .. والأهم من ذلك مصالحها وكان رباطها المودة والرحمة .. فما من أحد يصاب بمكروه إلا هبّوا هبْة رجل واحد .. وما من جائع إلا والكل أطعمه وما من عارٍ إلا وكسوه .. وكان أولادهم يلعبون ويعملون ويتعلمون مع بعضهم البعض من شروق الشمس حتى مغيبها .. وفى لياليهم يحلو السهر حول رأكية النار وعلى سيرة أدهم الشرقاوى

والهلالى سلامة .. والزناتى خليفة وغيرهم من القدوة .. تلك هى ثقافتهم التى علمتهم إياها الشهامة .. والشهادة للزود عن وطنهم.

ولكن كان ينغص حياتهم ذلك اللورد المفترى وزوجته من أهل الشمال .. أتاهم غازيا ومعه البندقية فرفعوا سيوفهم فى وجهه .. ولكنها تحطمت .. فأحضروا البنادق وصوبوها عليه .. فأتى بالمدافع ليصيبهم من بعيد – فتجمعوا وتعاونوا لكى يأتوا بالمدفع .. فأتاهم بطير أبابيل ترميهم من أبعد الأبعدين.

ف .. سكنوا حتى يعدوا له العدة .. ولاموا أنفسهم لأنهم لم يعدوا لهم من قبل القوة ورباط الخيل .. فبسبب طيبتهم .. اعتقدوا أن الدنيا بخير وما أكثر ما علمتهم الدنيا .. ولكنهم كانوا غافلين عن التاريخ .. ولم يتعظ أولو الألباب.

اللورد

هبط هذا اللورد المتعجرف على هذه القرية الآمنة حتى يأمن وصول الشاى ذو المزاج العالى إلى أهل الشمال وكذلك ليضمن التوابل الحريفة التى يضعونها فى طعامهم لتجرى الدماء فى عروقهم بدلا من أن تتجمد من البرد الشمالى .. ومافيش مانع لو فيه شوية خيرات عند قرية عربرب يبقى خير .. وآهى زيادة الخير خيرين .. إلا أنهم اكتشفوا أن لدى عربرب ما هو أهم من الشاى .. والتوابل – وهى الطاقة اللى تحرك العفريت .. وتعفرت الحديد .. فسال لعاب اللورد وغير اللورد .. وبقيت خناقة مين يورث مين؟

كان اللورد ستيوارت .. ذلك العتل ذو الشوارب الذهبية المبرومة إلى أعلى .. يضع جتته الضخمة فى بذلة شبه عسكرية وحذاء غليظ ذو رقبة .. ويضع على رأسه قبعته المعتادة .. والذى تعود عليها فى بلاد الجنوب لتقيه الحر الذى لم ولن يعتاده بسبب الشمس المحرقة .. ولكن الاستعمار والاستعباد لخلق الله فى دمه وكأنه خُلق لذلك .. فهو لا يقوى على أن يأكل عيشه دون أن تكون مغموسة فى عرق الآخرين .. وأحيانا فى دمائهم.

كان يقطن فى مقاطعته المملوءة بالخدم والحشم أو بالأحرى قل مملوءة بالعبيد .. وكانت زوجته كاترين ترافقه فى مزرعته هذه الزوجة الرقيقة والدقيقة الملامح والتى ترتدى الفساتين الفضفاضة والمشدودة على وسطها النحيل .. ورغم أنها ترتدى قبعة دائما .. إلا أن الشمسية الصغيرة لا تفارقها – وكانت عطوفة على من حولها أو الذين يعملون فى المزرعة .. ولكنه عطف الفلاح على ماشيته وبهائمه ولكن الفرق بينها وبين الفلاح .. أن الفلاح يذبح ماشيته مرة واحدة فى حياتها .. ولكنها تذبح عبيدها مرة بعد مرة فى حياتهم الممتدة عبر هذه العبودية.

وكان الوافدون من أهل الشمال .. وهم كثيرون .. للاستمتاع بدفء الشمس فى مزرعة اللورد .. والذى تقوم على خدمتهم قرية عربرب من شبابها وشيوخها ونسائها.

ومن وجهه نظر اللورد أن هؤلاء أهل عربرب .. عبارة عن عالم من العصاة المتمردين .. فهم لم يستكينوا بسهولة .. ولم يتركوه ينشئ هذه المزرعة بسهولة .. فقد كانت مقاومتهم مقاومة حياة أو موت .. وكان اللورد يعلم جيدًا أن استكانتهم الحالية .. ماهى إلا نار تحت الرماد

تنتظر من يزيح الرماد من عليها لتلتهم النار مستعبديها .. ولم يفتأ شباب قرية عربرب أن يجد فرصة سانحة إلا ويمارس مقاومته المسلحة ضد أهل الشمال متمثلة فى اللورد القابع على قلوبهم – وليس المقاومة المسلحة فقط هى التى كانت وسيلة للمقاومة .. بل كان هناك المقاومة السلبية والتى كانت أشد فتكا .. ألا وهى الكلمة والمقاطعة .. والتى كانت تحافظ على موقف وقوة عربرب ببعضهم فى نسيج متماسك – بأصالة الأعراق وسماحة الأديان.

استخدم اللورد كافة الوسائل للفرقة بين أهل عربرب محاولا أن يدق الإسفين بالأعراق .. وشق جيوب الفُرقة بين الأديان والمعتقدات .. ورغم بعد المسافات بين تجمعات المبانى إلا أن الود والمحبة والرحمة قربت المسافات بينهم كقرية بمصالحهم المشتركة .. ومن أجل ذلك صنع الحدود المصطنعة فيما بينهم .. فلا يتحرك أحد من تجمع إلى آخر .. إلا ومعه صك للعبور يسمح به اللورد أو لا يسمح.

ووضع اللورد شواهد على كل مجموعة من البيوتات وألبسهم طراطير حتى يتميزوا عن الباقى .. وعلى رأس كل مجموعة كبيرهم والذى يتميز طرطوره أنه أكثر زركشة وطولاً.

وبدأ الشباب الواعى .. والمثقفون من أهل عربرب مضاعفة جهدهم فى المقاومة بين اللورد وبين أصحاب الطراطير وتعاظم دور أصحاب الطراطير بعد أن أثبتوا ولاءهم للسيد اللورد .. والذين كانوا يحافظون على الطراطير فى محافل السيد اللورد .. ويرتدون القبقاب أمام أهل عربرب .. وأحيانًا يلبسون العمم .. وكلما كبرت العمة زادت البركات وأفتى المنافقون فى نسبهم إلى الأشراف .. مباركين الوصاية إلى الطرطور الأصغر.

المزرعة

هذه المزرعة الوارفه من الأشجار .. ومنها أشجار الزينة ومنها المملوءة بالفاكهة المتنوعة .. وجداول المياه التى تتخللها .. والمبانى الفاخرة وخاصة قصر اللورد ستيوارت .. ولكن ليس هناك شجرة أو جدول مياه أو مبنى إلا ودفن تحته أخيار الشباب من قرية عربرب والذين كانوا يقاومون تواجد هذا اللورد المتغطرس .. وكان (عجماوى) الكبير هو إمامهم المستتر .. وهو بعمامته التقليدية .. وعباءته المصنوعة من وبر الجمل .. والتلفيحة المزركشة .. وكان الرجل ذو قامة عالية ومنكبين عريضين .. وله مهابة بين العدو قبل الصديق .. وهو الذى جمع أهل عربرب على كلمة واحدة .. ألا وهى طرد هذا الدخيل والذى يسير بينهم كالسرطان فى الجسد .. وقد آمن معه كل أهل عربرب بالكفاح والاستقلال كهدف قومى لهم .. وقد خرج من صلب (عجماوى) الكبير من أركع وأذل اللورد فى اقتصادياته بالعمل تارة .. وبالمقاطعة تارة أخرى .. وتعجب (عجماوى) الصغير كيف لهؤلاء البسطاء أن يفرضوا على أهل الشمال وعلى من يقف معهم هذه المقاطعة لدرجة جعلت أهل الشمال يعملون لهم ألف حساب بسبب

هذا السلاح .. وتذكر أن الأمور انقلب حالها فى عصره .. حيث كان أهل الشمال هم الذين يفرضون المقاطعة عليهم حتى التجويع والإذلال .. بل وتجميد أموالهم عينى عينك وبكل بجاحة .. وعينوا أنفسهم أوصياء على أموالهم.

وقد شاهد (عجماوى) الصغير .. (عجماوى) الكبير وهو يغافل أى طرطور لكى يزيل الطرطور اللى على رأس أى طرطور تطاول وتطرطر بطرطوره على ناسه .. ولكن كان يظهر أحيانا ويعتلى ناسه .. واحد من غير طرطور ولكنه يرتدى على صدره واقياً .. وواقياً .. من أهله وناسه – وكما كان اللورد هو المتخصص فى صناعة الطراطير .. كان هو أيضا صانع الواقى الصدرى لحماية أذنابه.

كان هذا هو الحال الذى رآه (عجماوى) .. ولكنه شاهد مجموعة بيوت على مقربة متباعدة فى نفس الوقت .. وهى تسكن فى حارة .. جوه حارة .. واسمها اليعقوبية.

وكان الخواجة (ديفيد) ابن قرية اليعقوبية تاجر ذهب وألماظ شاطر ويتردد كل فترة على المزرعة لبيع المصوغات للسيدة (كاترين) .. وكان تردده على المزرعة يزيد عندما يحضر ضيوف أهل الشمال

إلى اللورد فى مزرعته .. ولكن عينه لا تغفل عن متابعة هؤلاء السادة الضيوف .. ولا يفوته أن يوغر صدر كل منهم تجاه الآخر .. لقد كانت هذه هى هوايته .. إلى أن تجرأ وأوغر صدر السيدة (كاترين) تجاه اللورد بقصص عن اللورد وخاصة مع الكونتيسة والتى كانت دائمة الحضور ضيفة على المزرعة.

الانتقام

اضطرب حال المزرعة من جراء الخواجة (ديفيد) .. وما يمارسه من حب الوقيعة بين اللورد وزوجته وبين ضيوف اللورد فيما بينهم .. وفكر اللورد فى أن يطهر مزرعته من هذا الوباء .. فأمر عبيد المزرعة أن يأتوا بالخواجة (ديفيد) وزوجته وابنة الوحيدة.

وبدأ بالانتقام والذى لا يقبله دين أو إنسانية .. فقد أمر عبيد المزرعة وعلى مشهد من الناس بأن يعتدى زبانيته على زوجة (ديفيد) .. حتى فقدت الوعى فى مرحلة ثم فقدت الحياة فى مرحلة أخرى .. ونزع القميص من على جسم الخواجة (ديفيد) .. ليصلب على شجرة الجميز الضخمة بالمزرعة .. ويتبادل الزبانية جلد الخواجة حتى فقد هو الآخر حياته ليكون درسًا لليعقوبية أجمعين.

وأمام هذه المشاهد والذى كان الطفل (يعقوب) ابن الخواجة (ديفيد) يقف وسط العبيد وهو يكتم صراخه فى أى زيل جلباب بجانبه .. وأوصاله ترتعش فى انتظار دوره.

ولكن وفى خباثة .. بدأ عبيد المزرعة فى تسريب (يعقوب)

من يد إلى يد حتى أبعدوه شفقة منهم عليه .. لكى ينتهى المطاف بهذا الطفل إلى بيوت أهل قرية عربرب والذى تطوع الشيخ أبا القسام لإخفاء (يعقوب) فى بيته .. وهذا ليس غريب فإن أبا القسام مشهور بشهامته وشجاعته وقد تكاتفت أهل القرية .. قرية عربرب فى ذلك.

ثار وشاط اللورد لإخفاء الطفل يعقوب والذى تحمل عبيد المزرعة الكثير من التعذيب جراء اختفاء (يعقوب) – وقد أمر اللورد بإحضار كل طفل فى بيوت اليعقوبية وفى مثل سن (يعقوب) وإعدامه .. والتجأت بيوت اليعقوبية إلى قرية عربرب بأطفالها الصغار .. وكعادة كرم وطيبة قرية عربرب .. قاموا بإخفاء وإيواء هؤلاء الأطفال من بطش اللورد.

كبر (يعقوب) فى بيت أبى القسام والذى أطعمه وأسقاه من خيرات أرضه بل شاركه كافة قرية عربرب فى ذلك .. رغم أنه كبر ولعب وسط أطفال وشباب قرية عربرب .. إلا أنه حاقد دائما على أقرانه ولكنه كان يحبس ويخفى حقدًا داخل صدره ولا يظهره أبدًا .. وإن كان ذلك يبدو أنه قد شربه من طباع بيوت اليعقوبية ومعتقداتهم تجاه الغير .. فإن معتقداتهم ليست للتبشير .. ولكنها عنصرية العقيدة.

وبدأ (يعقوب) وهو شاب صغير لتغيير نظم حياة قرية عربرب إلى الاستفادة منها .. فالألعاب نظمها فى مباريات ومراهنات ليحصل منها على المال .. وبين البائع والمشترى أوجد مهنة الوسيط والحصول على السمسرة وأدخلها فى كل عمل شريف أو غير شريف.

بدأ يستدان منه كل محتاج .. ولكن بصكوك وشروط تحيكها أعمال الربا .. متعمدا الفساد والإفساد.

وكان شباب القرية لا تمر أيام إلا ويقومون بأعمال فدائية ضد اللورد الذى طغى واستفحل فى طغيانه.

وبعد إحدى هذه العمليات الفدائية الكبرى .. وقد شاط اللورد .. وهاج .. وماج ليعرف من هم هؤلاء الغاضبون لوجوده.

وفى أقصى قمة غضب سيتوارت وهو جالس فى تراس قصره وأمامه حديقته الغناء ذات النافورة التى تتوسط الحديقة .. ظهر فجأة شاب ليقف أمامه ويقول .. ياما قتلت أطفال كثيرة من أهل اليعقوبية بسببى .. أنا أمامك الآن .. تقدر تقتلنى .. لكن لو قتلتنى لن تعرف من هم الذين يعكرون مزاجك العالى بشوية لعب العيال اللى بيعملوه ويسموه فدائية.

شاط اللورد فى أول الأمر وكاد أن يفتك به .. ولكن فجأة نزلت عليه السكينة ليستجوبه .. ثم استطرد يعقوب .. وبعد أن قلت لك برضه ممكن تقتلنى .. لكنك لن تعرف من سيعاود عكننتك فى المستقبل.

وما كان من اللورد إلا أنه أغدق عليه المال ولكن يعقوب قال له .. رد عليك مالك .. إن طلبى أبسط من ذلك .. إن طلبى عند عدوك .. عند هؤلاء الأشرار الذين يعكرون مزاجك.

فسأله اللورد عما يريد .. فقال يعقوب إنى فى حجرة متواضعة عند بيوت القسام والذين يتمتعون بالبيوت الكبيرة .. إننى أطلب بيتًا من هذه البيوت .. ولا أطلب منك غير حماية خادمك الأمين يعقوب .. والذى سيكون فى خدمتك .. بل أنا وأهل اليعقوبية جميعا .. فأنت تعرف مكانتى عندهم وأنت تعرف أن الدنيا خد .. وهات.

وفى حماية اللورد زاحم واستولى على أغلب غرف المنزل .. وتزوج فتاة من أهل اليعقوبية ثم استحضر ابن عمه ليستولى على بيت ثانٍ .. وثالث .. ورابع.

وفى كل مرة يثور أهل قرية عربرب .. ولا يجدون إلا بطش اللورد وقوة آل (يعقوب) بعد أن أمدهم بالسلاح .. ومع دهاء (يعقوب) بدأ اللعب

بالطراطير المتطرطرة فوق الرؤوس تارة .. وتارة أخرى بذوى الصدور الواقية .. وكانت الحكمة من الصدر الواقى أنها تخفى ولاء الفرد للورد تحت قميصه .. وفى نفس الوقت يجمهر نفسه لجماهير تثق فى تجمهرهم له.

التيه

كل هذه الأحداث والتى تظهر على شاشة اللاب توب .. وقد تجمدت عين د.(كنعان) على الشاشة وهو صامت .. ولكنه يقطر دما من قلبه .. حتى أن أنفاسه كادت أن تتوقف.

وفى نفس الوقت كان (يوسف) يثور فى كل موقف .. ويتحرك خطوات وهو يسب ويلعن ليرجع بسرعة إلى الشاشة حتى لا يفوته حدث .. وأحيانا يهتف محذرا .. ويقول خلى بالكم .. أو يخاطب المناضلين وهم فى طريقهم لإحدى العمليات .. أرجعوا اللورد عارف كل حاجة .. علشان (يعقوب) الكلب قال للورد!!

وأصاب د. (كنعان) و(يوسف) حزن شديد عندما توفى (عجماوى) الكبير .. وليس الحزن على وفاته بقدر الحزن على مشاعره وقد توفى وهو يرى تراب القرية يتساقط من بين أصابعه رغم قبضته على هذا التراب بكلتا يديه .. ولكن الخيانة من الداخل والخارج نخرت فى إرادته إلى النخاع .. سواء أصحاب الطراطير – أو أصحاب الصدور الواقية ولكن انتابتهم الفرحة عندما شاهدوا مولد عم (عجماوى)

والذى فجأة كبر وبدأ يرتدى عباءة جدة (عجماوى) الكبير ويتلفح بالشال الخاص به وطأطأ د. (كنعان) رأسه عندما شاهد منظر توارث العباية من الكبير إلى الصغير .. إنها نفس العباءة التى أخذها معه إلى بلاد الشمال .. لكنه لم يحفظ هيبة العباءة .. وتركها لأهل الشمال لتستقر فى منظر دعابى ومن ضمن ديكور الشقة وهو فى شكل خيال المآتة .. إنه لم يحافظ على تراثه وتركه لعبة بين الأطفال عند أهل الشمال – وأقسم (يوسف) بينه وبين نفسه عند تذكر العباءة .. إن أول عمل سيفعله عندما يعود إلى بيته بأن يضع العباءة فى مكانها المناسب لاحترام هذه العباءة .. بل وصمم أن يرتديها فى المناسبات الهامة.

وحيث لا تنفع القوة يبدأ المكر والدهاء .. وخاصة أن أهل اليعقوبية لهم برتوكول ومخطط ليس للسيطرة على أهل عربرب فقط بل أهل عربرب .. وأهل الشمال .. والجنوب .. والشرق .. والغرب .. ولكنه يستمد قوته من ضعف عدوه لذلك ركز جهده فى إضعاف عدوه أهل عربرب.

وبدأ (يعقوب) يعتمد على قوته أيضا بجانب قوة اللورد .. ولكنه يعلم.

أن اللورد هذا قد كبر فى السن وأن أسنانه بدأت تتساقط فاشترى (يعقوب) سيدًا جديدًا له وكان ثمن الشراء فى هذه المرة هو المال الذى بدأ يتحكم فيه والعقيدة والتى ربطها بعقيدته .. خاصة أن هذا السيد الجديد ظهر إلى الكون بمبدأ الاستيطان مكان المستوطن الأصلى .. وهذا المبدأ يروق تماما لفكر ومبدأ (يعقوب) وأهل اليعقوبية .. وكان اسم السيد الجديد هو السيناتور.

ومع ذلك السيناتور الشاب المتعافى والذى استحوذ عليه (يعقوب) بدهائه وماله وبدأت صولات وجولات جديدة مع أهل عربرب .. وكان عمادها القوة والتى استنفذها مع أهل عربرب إلى آخر مداها .. ولكن كان د. (كنعان) و(يوسف) يشاهدون عم (عجماوى) .. وهو يصد ويرد ولا يكل رغم الضربات الموجعة .. وكانوا يهللون عند كل موقف عندما كان عم (عجماوى) يقف صامدا أمام هذه الشراسة رغم الجراح التى كانت تصيبه .. وكبر (عجماوى) وأنهكته الحياة والجهاد ولملمة أهل عربرب حوله .. فقد كانت أولى الأمور التى تهمه ويكافح من أجلها هو رابطة وترابط أهل عربرب مع بعضهم البعض.

وقد كان أبناؤه أكتافهم بجانب كتفه فى كفاحه ورغم خيانة القلة من أبنائه ذوى الطراطير وذوى الصدور الواقية .. إلا أن أبناءه المخلصين .. ظلوا على طريق الكفاح والبناء المستنير وربطوا الأحزمة على بطونهم وعلى سيوفهم من أجل وطنهم. ولكن انهار عم (عجماوى) حزنا على أهم أبنائه المناضلين .. وكان اسمه (أدهم) .. وظل يبكيه ويقول .. قتلوك يا (أدهم) يا ناصر الغلابة على الأسود .. سموك يا (أدهم) .. يللى من أجل خيرنا بنيت السدود .. قهروك يا (أدهم) .. ياللى بإخلاصك حطمت بيه عدونا اللدود .. خِلِيت بينا يا (أدهم) لكن أكيد .. ح .. تعود .. بلادنا ولادة .. وأكيد .. ح .. تعود وظل (عجماوى) يبكى (أدهم) حتى ضعف بصره وظل ينتحبه حتى فقد بصره – وظل يتحسس من حوله من الشباب .. فوجد من هو يافع وله منكبين عريضين .. وصدر من فولاذ وقال له:

عجماوى: أنت أدهم المقبل.

عواد: أنا أدهم .. لكن مش أدهم.

عجماوى: لكن أنت مين .. ما دام أنت مش أدهم.

عواد: أنا عواد يا عجماوى.

عجماوى: اخرس .. يا ولد .. أنا عمك عجماوى.

عواد: كنت عمى قبل ما أبقى سيدك.

عجماوى: صوتى هو اللى ندا عليك باسم أدهم.

عواد: صوتك أعمى .. زى بصرك.

عجماوى: قوم .. فز .. وكمان بتكلمنى وأنت قاعد على الكرسى.

عواد: وكمان مش شايف أنا قاعد على إيه .. ده حجر عروستى وهيبة !! .. وهيبة بنت عمى يعقوب وأخت رحاب ونعمة ومادلين كريم.

يتماسك (عجماوى) ويجمع قواه .. ويرفع عصاه ليضرب عواد ولكن عواد يدفعه بيده .. فيقع على الأرض .. فيمسك عجماوى بيده الرمال التى وقع عليها ويقول (بعد أن أدرك أن الصدر الفولاذى ما هو إلا من ذوات الصدر الواقى).

عجماوى: (محدثا نفسه) طيب والأرض.

عواد: تهون لأجل عيون وهيبة.

عجماوى: وإخوانك اللى حواليك؟!!.

عواد: هو .. فيه حد نافعنى شخصيا .. وكل شوية عمالين يزعلّوا وهيبة.

عجماوى: المنفعة كانت عامة وعمرها ما كانت لشخص – ووهيبة عمرها ما سترت طرطورًا .. أو صدرًا واقياً – وعلقت المشانق من أول مشنقة باب زويلة .. حتى مشنقة الصدامى أخوك!!.

أفهم يا عواد بقه .. إخوانك وولادك غلابة وعايزين ياكلوا عيش .. على الأقل علمهم صنعه.

عواد: وهيبة .. حتوكلهم .. يعنى مش ضرورى يتعلموا صنعة .. كفاية عليهم فك الخط – ثم إن دول جنس مفجوع!! .. من ساعة ما انفتحوا على أهل الشمال والجنوب .. وهمه أتسرعوا وعايزين كل حاجة من غير ما يشتغلوا.

عجماوى: منك لله !! .. يعنى أنت علمتهم وهم قالوا لأ؟

بيوت القسام .. اللى حلفنا إننا نرجعها زى اللى قبلها وقبلها .. والقسام دلوقت وأولاده محشورين

فى حجرة .. من غير أكل ولا علاج .. ولا ميه – افتح لهم الطاقة اللى بينا .. يمكن يتنفسوا لأجل الحياة.

عواد: افتح الطاقة اللى بينا وبينهم!! .. أنت عايز وهيبة تزعل.

عجماوى: أخوك بيناضل علشان عايز بيته .. ويستشهد فى سبيل أرضه وعرضه وأولاده .. وأنت كمان ساددد وقافل الطاقة اللى بينك وبينه.

عواد: يناضل!! .. قصدك إرهابى.

ويستشهد!! .. قصدك بيتقتل.

وهيبة وعدتهم أنها حتوكلهم مهلبية .. بس هو اللى طفس .. ومستعجل.

عجماوى: بتبيع كل الأرض دى .. علشان حجر وهيبة.

ألا تخشى الله فى ذريتك.

عواد: وهيبة عاملة روحها كرسى لى .. ومرجيحة لذريتى من بعدى.

عجماوى: إخوانك بتتقتل من يعقوب والسيناتور.

عواد: كنت حلبس بدلة سودة .. بس لسه ما فصلتش.

عجماوى: أنت اللى زيك .. يدور على طرحة سودة .. مش بدلة – يا بنى ارجع لعقلك .. اللورد أتعهد وزرع آل يعقوب فى الأرض .. والسيناتور أتعهد بأنه ينزعك من الأرض .. دول عزلوك عن إخوانك فى سبيل حجر وهيبة .. يا بنى تاريخ عربرب بيتنحت بالفاس وبسن السيف .. عمره ما كان بصدقة ولا سبوبة .. وعمرك ما حتلاقى صدر أحن من تراب بلدك عربرب .. بكره تموت ودود الأرض حينهشك .. وتنهش ولادك.

عواد: وراحت فين رجلين وهيبة اللى زى المرمر .. حتدوس على الدود.

عجماوى: بس الدود ده فى أرض عربرب .. أرض جدودك وأنت عايز يندس عليه من رجلين نجسة.

عواد: ثم تعال أنت! .. يا راجل أنت يا ناقص .. ياللى

اسمك عجماوى ..! أنا خيرى عليكم ووحدتكم تحت راية واحد وبدلت الرموز اللى فى كل راية .. يعنى بدال اللى حاطط نسر واللى نجوم واللى شجرة واللى شهادة .. حطيت بدال كل دول حتة كورة معتبرة من صنع الست وهيبة – واختصر عملية التكتل والأحزاب إلى زى رسمى حسب لون الفانلة.

وكده بقى فيه هدف قومى والناس تجرى وراه .. وبدال ما يجروا فى أرض خراب .. بيناضلوا على أرض خضرا ومتخططة علشان يتعلموا النظام.

والحقيقة أن أهل الجنوب اللى فى بلاد الآشيا .. مش مخلينيهم عايزين حاجة .. والآشيا بقت معدن لدرجة أن أهل الآشيا معندهمش مانع يستضيفوهم عندهم .. وأنا معنديش مانع .. و .. ح أستناهم هنا مع وهيبة.

وهنا يجرى (عجماوى) شمال ويمين ويصرخ بأعلى صوته على د. (كنعان) ويقول له خدنى يا بنى على الثلاجة .. حرام عليك تعيشنى

المأساة مرتين .. زمان كنا بنقول عواد باع أرضه .. دلوقتى باع أرضه وعرضه ودنيته ودينه !! اسحبنى أنا فى عرضك.

وما كان من (يوسف) إلا أن سحب المشبك من أذن عم (عجماوى) ويصيح فى وجه والده .. حرام .. حرام .. ثم يأخذ عتلة كانت بجانب (عجماوى) يستخدمها فى تكسير الثلج .. ويخرج منطلقا خارج المغارة ويضرب بها أى ذئب أو دب يمنعه من الخروج .. وقد تجمعت فى جسده النحيل قوة ألف رجل بحيث لا يتحمل أى من هذه الوحوش غير ضربة

واحدة .. ويجرى خلفه د. (كنعان) ويقول له:

د. كنعان: أنت رايح فين يا بنى .. ارجع.

يوسف: سيبنى يابا .. أنا رايح بلاد الشمال .. وأول حاجة ..

ح .. أعملها أنى أجيب العباية والتلفيحة .. وألملم كل واحد من أهل وطنى عربرب وعايش فى بلاد الشمال .. وخصوصا أصحاب العلم والمعرفة .. وأعرفهم أن إحنا اتبعنا من زمان بثمن غالٍ قوى .. وضرورى نسترد الثمن ده .. الوطن صحيح غالٍ يا دكتور.

ولكن د. (كنعان) بدلا من أن يمنعه .. خلع نظارته ومسكها فى يده ليلاحق (يوسف) فى خطواته المسرعة نحو أرض الوطن .. ويقول له بارك الله فيك!! .. ومش مهم مهما طال المشوار.

وعلى جلجلة هذه الأصوات العالية .. خرج من داخل المغارة جمع كبير من أهل عربرب .. وقفوا صامتين بلا حراك وكأنهم نحتوا من الثلج .. وبأعين جاحظة بلا حراك .. وفاهٍ مفتوح – ولكن ظهر من بينهم عواد وقال كلمة واحدة فقط .. ألا وهى – محدش سمع وهيبة بتنده عليّ .. ليرجع مرة أخرى إلى داخل المغارة ويجلس القرفصاء.